

الحرمان في الحسرة
وردتها الحسرة إلى
الحرمان

ينحدر هذا
الشاب من أسرة ريفية
فقيرة عميدها مزارع
بسيط ، فكان منتهى
حظه من التعليم شهادة

الحفظ

أقصوصة مصرية
بقلم الأديب نجيب محفوظ

الكفاءة ، وقد حسب أبوه نفسه من المجاهدين الصابرين أن بلغ به هذه المرتبة من التعلم ، فسمي إلى توظيفه ببيعة جنهات ، وكان فرحه بذلك عظيماً ، كما كان ألم الشاب بليغاً ؛ أما الأب فقد فآخر أهل قريته بابنه « الميري » وعبط نفسه على الجنيه الذي أجراه الشاب عليه ، وأما الشاب فكان مجتهداً طموحاً شديد الحساسية ، يطمع في المراكز العالية ويتحرق على نعيم الدنيا الذي يرى آثاره المغرية في السيارات المارقة والمهارات الشاهقة واللبالي الساهرة ، فسخط وحقد وحمل الدهر والناس ونظام الكون ما يعاني من شدة وبؤس وحرمان وفقر . وإن حق لأبيه أن يباهي به العالمين وهو قابع في قريته فقد كان يزوي خجلاً من تفاهته وهو يسير في القاهرة الصاخبة كمنلة على وريقة شجرة باسقة في غابة شجراء تأوى إليها الأسود والأفيال . يعمل من الصباح إلى المساء يغادر المصلحة مضمحل القوى خائر المزيمه ، مهين النفس ، قذر الجسم ، فيرتعى على فراشه أسفاً قانطاً وهو يتمنى على الله ألا يطلع عليه الصباح إلا وهو في قبر يريحه من العالم وتعبه وضآلة أمله فيه

بدا على وجه محمد أفندي الحلو التهيؤ للتوثب والمغامرة فدرس يده في جيبه وأخرج ريالاً ثم دخل بأقدام ثابتة إلى مكتب جمعية المواساة وتردد لحظة يقلب ناظريه في أوراق النصيب المكدسة ونفسه حيرى وقلبه خافق لا يدرى ما ينبني أن يأخذ وما ينبني أن يدع ، وكأنه آثر أن يلقى عن عائق اختياره التبعة فطلب من موظف المكتب — وهو ينقده الريال — أن يختار له ورقة

واليانصيب مغامرة خفيفة تجذب الناس على اختلاف طبقاتهم ، فيشارك فيه بعض الأغنياء للتلهية ومداغمة الملل وإيقاظ العواطف التي ران عليها الشبع والسقم ، ويساهم فيه آخرون منهم طلباً للمزيد وإشباعاً لغريزة التملك التي لا تعرف الشبع ؛ أما أغلبية مريديه فمن الفقراء الحاليين الذين يرون في ورقته « باسبورت » ينقلهم إلى عالم عماده المصارف وشماره الترف وآياته زينات الدنيا من النساء والمشاهد والاسفار والمآكل والشارب . ومن اطلع على وجه محمد أفندي وهو يدفن ورقة اليانصيب في محفظته فرأى عينيه الحالتين وسمع تهديته الحارة وهو يدعو قائلاً : يارب ! — لا يشك في أنه من هذه الجماعة الأخيرة التي أوقعها

— إن ماسمت لهم دون الحقيقة بكثير ، فلم يبق لهم من متاع الدنيا سوى الاسم القديم ، وهم يطمعون في أن يشتروا به أموال عمك الطائفة ؛ وكاد عمك يلين لهم لولا أن انبريت له غضباً وقلت له : خذ حذرک من هؤلاء الطغاة الماكرين واذكر أيام كانوا ينظرون إلينا نظرة المؤمن إلى الكافر ، وهمست في أذنه : إن الأقربين أولى بالمعروف ، وذكرته أن له ابن أخ موظفاً محترماً فعاود فكره ثم قبل ... — ماذا قبل ... ؟

— فقهقه الأب حتى بانت نواجذه الصفرة وقال :

— قبل أن يزوجك من ابنته ... ابنة عمك خضرا ، مطمئناً إلى أن يداً غريبة لن تسلبه أمواله .. وصمت الرجل برهة وهو ينظر إلى ابنته ثم عاد إلى الكلام فقال : —

— الحق أقول ... لقد طمعت في خضرا منذ زمن بعيد وتمنيت على الله أن يجعلها من قسمتك ونصيبك ولكنني ترددت كثيراً أن أفصح أخى في هذا الموضوع . نعم هوشيق وقد نشأنا معاً صغيرين محتوين الفقر والبؤس ، ولولا الهجرة التي ارتضاها لنفسه والأعمال التي خاضها أبقى فقيراً مثلي ، ولكنه الآن من كبار أغنياء قريتنا ، فما زلت متردداً خائفاً ، أفكر في الأمر وأراجع نفسي فيه وأهم وأنكس وأفرج عن شفتي مجاز فبالكلام ثم الصلة هما من الخوف لائذا بالصمت ، حتى تقدم عبد الحفيظ ففك تقدمه عقدة لساني فتكلمت وظفرت ... والآن ماعليك إلا أن تسافر مي اليوم أو الغد . — ولم هذه السرعة ... ؟

ولم تكن هذه أول مرة يشتري فيها ورقة البانصيب ، فكم من مرة اشتري وكم من مرات خسر ، وكم ذهب ينير وجهه الأمل وآب تلتوى شفتاه من اليأس ، وكم نام تسعده أحلام الأمانى وصحا على حسرة وخيبة ، وكانت أهون الخسائر المادية مما يدفعه ثمناً للورقة غير هيئة على مثله بل كبيرة فادحة ، ولكنه لم ينشأ له عزم ولم تغتر له همّة ولم يول عنه أمل

وذهب كما دته إلى مسكنه أو بالأحرى إلى حجرته ووضع الورقة في ظرف ووضع الظرف تحت رزمة من الظروف والخطابات ، ثم قيد رقم الورقة في مذكرته وانتظر على اللذة الوحيدة التي تجدها نفسه لذة أحلام الأمانى . وبعد أيام فوجئ بمقدم أبيه وقد أوجس قلبه خيفة أن يكون مجيئه لحاجة ، وكان صفر اليدين الا من الضروري ولكن الرجل بادده قائلاً وهو لا يمالك عواطفه :

— أبشر ... لقد ابتسم لك الحظ على يدتي ... — كيف ... ؟

— فالحما بغير توقع عظيم للفرح لأنه يعلم أن والده يحسب ماهو غارق فيه من بؤس نعياً وسودداً يغبط عليهما . واستمر الرجل قائلاً : —

— أتعرف أسرة الحمار ... ؟

— طبعاً أذكرهم فقد نشأت مع أحد أبنائهم عبد الحفيظ وطويت في سمجته عهد الصبا

— أحسنت فهو من أعنى ... لأنه تقدم في الأسبوع الفائت إلى عمك طالباً يد ابنته ولعلك لاتعلم أن أسرة الحمار هوت إلى دمار الإفلاس والبوار — سمعت شيئاً من هذا ؟

هذه هي زوجته المقبلة أو هي السم الذي وضعت
الأقدار في دسم المال وقدمته إليه

وتذكر أمراً فأسرع إلى ورقة اليانصيب وألقى
عليها نظرة فاحصة فوجد أن موعد السحب في شهر
أكتوبر وهو ما يزال في يوليو فما من سبيل إلى
التسويق إلى أن يتأكد من حظه ، فهي غنيمة من
الجنون رفضها ، وهي مصيبة من المستحيل دفعها
وسافر في صحبة أبيه وعقد على الفتاة بين الزغاريد
والأفراح ولبث لديهم يوماً ثم قفل راجعاً إلى القاهرة ،
وكانت تمنع على وجهه كآبة مدلمة ويتمذب قلبه
بألم ممض ، إذ وقر في نفسه أنه باع نفسه بيع العبيد
أو بذلها بذل البغايا ، وأن تلك الفتاة « النشار » قيده
في قدميها ككلب مهين ، فياله من فوز كالخسران
وأخذ أهون منه الاعطاء ! وكان أمامه عام كامل على
أقل تقدير تجهز فيه الفتاة على حساب والدها
وحده لأنهم كانوا يعلمون علم اليقين أنه لو ترك الأمر
إلى قدرته ما فتح بيت الزوجية ولا في منحدرات
الشيخوخة ، فتعزى بهذا العام بعض العزاء وكانت
تكتب نفسه كلما انفرط من عقد أيامه واحد ،
ولكنه لم يربدا من المحافظة على المظاهر . فاتصلت
الرسائل بينه وبين عمه وكانت في طلاوتها الظاهرة
رسائل زوج محدود يترقب بفارغ الصبر يومه
الموعود

أما الذي كان سعيه حقاً فهو والده ، وقد
أجزل له شقيقه الثرى العطاء ليلسد في المظهر
اللائق ، فذاقت نفسه المحرومة النعيم على كبر
وانغمس في الرفاهية وامتلأ بالنبطة فسار في الأرض
مختللاً نخوراً يكاد يهتف بالناس أن انظروا وسبحوا
واحسدوا

— خير البر عاجله ... وإني أريد أن أقطع
الطريق على أبناء الحمار ... ولا تنس أن نبأ خطبتك
لابنة عمك ذاع بين أهل القرية ، فيهمنى أن أعجل
بعقد الزواج أو يقولون إن عمها قطع خطبتها وولى عنها
— عقد الزواج ... !

— نعم هذا هين ... وأما الدخلة فعلى مهل ..
هيا ولا يثنك التقدير فإن عمك عليم بحال وحالك
وسنكتب مهرأ صوريا فلا تخش شيئاً .

هل يستطيع أن يقول لا فيرفض أفدنة
وعمارات وأموالاً لا يحيط بها الحسابان ؟

أما ابنة عمه فأعوذ بالله من شر ما خلق ... هي
كتلة من اللحم المنتفخ ، تضيق في تهذه قسبات
الوجه ومعالم الجسم ، فهي لا يعرف لها خصر من
ردف من صدر ، جميعها كتلة واحدة كأنما صبت
في برميل نبذ ، وما يرى من عينيها فشقان ضيقان
كأنما يسلط عليهما شمع شمس لا يفيب ، وما يبرز
من أنفها فانتفاخ قصيرة كأنها دمل في إبان الخطر ؛
وهي إلى ذلك ثقيلة الظل ، مظلمة الروح ، شديدة
الغباء ؛ وإنه ليذكر أنه داعبها مرة فحاطبها قائلاً :
« يا أبلة خضرا » على طريقة أهل المدن فغابت عنها
الدعابة واصفر وجهها وذهبت إلى أمها غاضبة تشكو
إليها تهكم ابن عمها وسوء أدبه إذ جعل يخاطبها
بما تخاطب به الأخت الكبرى وعبثاً حاول أن
يهدي خاطرها وأن يصرف عنها الموجدة

والأدهى من هذا كله أن أهلها لا يترفون
بميب لها ، فهي لديهم لؤؤة مبرأة من العيوب ، ولا
تفتأ أمها ترمقها في الجيئة والذهاب بعين الحب
والاعجاب ، وما تنفك تحرق حولها البخور دفناً للسوء
وفقاً لعين الحسود

وسعاة، هذا يهني، وذاك يطلب «الحلاوة»، وذلك يشكو الحظ الذي خانته في رقم أو رقمين، حتى رئيس القلم خاطب محمداً بلهجة رقيقة لأول مرة، بل حدثت معجزة فابتسم له وسأله :-

— علامَ عزمت ..؟

— لا أدري ياسيدي

— أنصحك ألا تستقيل من وظيفتك ...
فالعامل أبهج مافي الحياة، وهو ذخر تدخره للملمات
— أشكرك ياسيدي

قالها ثم سار يترنخ كالثلث وقد طلب منه الرئيس أن يكتب طلباً باجازه يوم أو يومين ووعده أن يوافق عليه فلم يسمع له؛ ونبهه زميل إلى أنه لم يترك ثمن القول فلم يلتفت إليه وسار يترنخ لأن السعادة التي وزعها الله على قلوب البشر هرعته إلى قلبه في تلك اللحظة كما تهرع حيوية الجسم إلى أحد أعضائه حين اشتداد نشاطه

ومر في طريقه بمكتب المواساة فساءه ان يجده مغلقاً، ولكن قيل له إنه يغلق بابه يوم الأحد، فضايق بذلك وقصد تواراً إلى حجرته بل إلى رزمة الظروف بل إلى الطرف الأخير منها وقرأ ورقة اليانصيب مثني وثلاث حتى اطمأن قلبه فردها إلى المجموعة وجلس يستريح ويتأمل بعينين يضيئهما نور الظفر، أركان حجرته الكثيرة وأثاثها البالي الحزين وعروق سقفها البارزة كأوداج المختنق ثم تكلم بصوت عال قائلاً :-

الآن أهجرك إلى غير رجعة، فوداعاً أيتها الفيران والصراير. أتمنى لك حظاً سعيداً وساكناً جديداً أجدي مما كنت وأتفع إلا أن ذكرى سوداء اغتصبت فجأة سعادته

ولم يلبث الرجل أن أخذ على ابنه الموثيق أن يفسح له وأمه مكاناً رحيماً في بيته المنتظر وأن يصون شيخوخته عن ذل الحاجة وكدح السعي فوعده خيراً وهو كظيم، ولم يكن يجحد على والده لأنه لم يضطره إلى شيء ولم يرد له إلا الخير، ولكن كان إذا من عليه أو تنجزه ما وعد حق عليه ثم حتى وفي صباح يوم الأحد من شهر أكتوبر كان محمد جالساً إلى مكتبه في المصلحة، وأمامه الملفات لا تكاد تظهر منه إلا قمة رأسه، وعلى كرسي إلى جانبه وضعت صينية عليها طبق الفول المدمس والرغيف والفوطه الحمراء، وكان إلى جانبه زميل يقرأ جريدة الصباح ويعلق على الحوادث والرجال بما يشاء هواه وتفكيره، ولم يلبث أن اشتغله صمت طاريء، ثم أسرع بفتح درجه وأخرج ورقة صغيرة أنعم النظر فيها ملياً، وتردد ناظره بينها وبين صفحة الجريدة المفتوحة أمامه ثم قام إلى محمد وصاح في وجهه بأنفعال جنوني :

« ربحت ... »

وكأنما حملت هذه الكلمة البسيطة إلى نفس محمد كل ما تنفع به نفس صاحبه فانتفض قائماً كأنه حرر فجأة من قوة جاذبية الأرض وصاح
« حقاً إنه اليوم يعلن اليانصيب ... كم تنسى المموم ... »

— أرني رقمك لأتأكد ...

— ها هو ذا ...

— هو بعينه ؟

وانتشر الخبر في المصلحة وتحدث به كل لسان، واتسمت له كل عينين، وانفجرت لوقعه كل شفيتين، وازدحمت الحجرة بجمع خفير من مراجعين وكتبة

— تعالى أيتها الحبيبة التي ستجعل لي من كل

حسنة عاشقة وحبيبة

ولكنه وجده فارغاً... آه لقد تذكر أنه وضع
الظرف السعيد فوق الظروف لا تحتها ، فأخذ
الفوقاني وفتحها ولكنه وجده أيضاً فارغاً...
فتصلب جسده وارتعشت يداه وخفق قلبه خفقة
الدعر والوجل ، ولعبت يداه في الظروف تفتشها
فرجع من كل بحنية مريرة ورعب عظيم ،
وقتش الدرج كله وقلبه رأساً على عقب ، وبحث
في الثياب والجيوب جميعاً والفراش وأركان الحجرة
بل نظر إلى السقف متحيراً... ودار في الحجرة وهو
يهتف كالدرويش في حلقة الدكر: «الله... الله...»
هل فرت الورقة فراراً؟... هل لبست «طاقة

الاخفاء»؟...

ولكن خطر له خاطر سريع... ألا يجوز أن
يكون قد وضع خطابه إلى عمه وورقة الطلاق في
الظرف المشتمل على ورقة اليانصيب وأرسل الجميع
إلى عمه؟...

وأسفاه ! هذا هو الفرض الوحيد الممكن
ولطم خديه ، وشد شعر رأسه وقرع رأسه
في عمد السرير ، حتى كاد يشرف على التهلكة ؛
واتتهى به الجنون إلى حالة يموت فيها التدبر ،
فارتدى ثيابه سريعاً وخف إلى المحطة ، وكان بينه
وبين قيام القطار انتظار نصف ساعة ، فهرع إلى
السيارة العمومية التي أسرعته به في طريقها إلى بنها
وكان جزعاً ذاهب الحلم ، فثقل عليه طول
الوقت ، واشتد به الانتظار ، وطفق يقوم ويقعد
وينظر في ساعته ويهوله ما تدل عليه من الزمن فيسأل
جاره وجار جاره

فتجههم وجهه ، وانقبض قلبه وصاح غاضباً : —

«أواه ! خضرأ زوجتي... !»

فلا مفر من الحقيقة المرة التي توشك أن يتعلمه
بنشوته كما يتلعق القبر الحسنة في ريعان الشباب
ومبعة الصبا ، فليته اطلع على الغيب من قبل...
ولكن هيهات أن يدع حزناً في الوجود ينقص
عليه صفوه ، ولن يكون غنياً إذا لم ينهل من مورد
السعادة كل شهي وينقى صفحة وجوده من لوثات
الآلم والشقاء ، وما هي إلا لحظة حتى ابتده عقله الحل
الموفق فهرع إلى المائدة وكتب إلى عمه الرسالة التالية:
« عمنا المحترم :

أرسل إليكم مع خطابي هذا وثيقة الطلاق من
ابنتكم كما هو مقدور ، وإنها الكبيرة ولكني فكرت
في أمرى طويلاً فلم أر عنها محيداً ، فهو تصميم نهائي
لا رجعة فيه وأرجو الله أن يلهمكم الصبر وأن ينزل
في قلبكم الرحمة فتغفروا لي »

وطالعه مرات ، وقد بدا له جافاً ، ولكنه لم
يحاول تخفيف لهجته بل ودلو آتته الشجاعة فجعله
أشد قسوة وأتقى للجمالة ، وأخذ ظرفاً دسه فيه
وكتب عليه عنوان عمه وخرج لا يلوي على شيء
يفتش عن المأذون ، ولم يهدأ له قلب حتى سلمه إلى
صندوق البريد ونام ليلته سعيداً مرتاح البال...

وفتح عينيه عند استيقاظه فشاهد نور
الصباح ينسكب من كوة الحجرة كأنه صدر حسنة
تنفرج عنه غداً شعر حالك السواد ، فقام كأنه يولد
من جديد في عالم جديد ، ودلف إلى رزمة الظروف
وأخذ آخرها وهو يقول :

ولا أبوك ... أهذه هي الورقة التي جئت من أجلها؟
خذها إرباً إرباً ... إذهب ... أغرب عن وجهي»
وجرى الشاب نحوه يحاول منعه من تمزيق
العمرة الراحلة ، فلطمه لطمه أشد من الأولى ،
فأمسك أبوه بيده وهو يبكي ، وجذبه خارجاً وهو
يصيح به متألماً :

« ماذا فعلت يا محمد ..؟ ماذا فعلت ..؟ »

وكان اليأس قد بلغ به منتهاه فأقلت من يد أبيه
وجري شطر الطريق المؤدى إلى النيل ، فارتعب
أبوه وجري خلفه وهو يناديه ، ولكن ضاع نداءه
في الهواء ، لأن محمداً لم يكن يسمع شيئاً ، فلم يلتفت
إلى والده ولا إلى نداءه ، وماله هو ونداء أبيه ..؟
بل ماله ونداء الدنيا جميعاً وهو لم يعد من أهلها ...
يجب محفوظ

حتى أراد الله أن تنتهي الرحلة ، فجري جرياً
إلى دار عمه
وكان وصوله عقب وصول خطابه بزمان قليل ،
فوجد البيت هائجاً مأججاً ، وصوت عمه يدوي
فيقتحم حجراته وأفنيته ، ورأى والده المسكين مائلاً
بين يدي الرجل الغاضب ، منكس الدقن ، كبير
الفؤاد ، يتلقى سبابه ووعيده في خشوع وذلة ورهبة
وأحدث دخول الشاب دهشة شديدة غير
متوقعة ، فساد صمت وخيم سكون ، فنظر إليه أبوه
ومد إليه يديه كأنما يقول له : ماذا فعلت ... ماذا
فعلت ... أما عمه فقد حمل في وجهه بتعجب من
جسارته ومن الباعث الذي حدها إلى الظهور ، ونسى
الشاب كل شيء فقال بصوت مبجوح : —
— ورقة يا نصيب ...

فظل الصمت غيماً ثقيلاً غليظاً ، فعاد الشاب
إلى التوسل بصوته الباكي وقد لح خطابه في شمال عمه :
— ارحمني ... أعطني الورقة ولك ما تشاء ...
فأفاق الرجل من وقع المفاجأة وتنبه إلى الشاب
الواقف أمامه الذي أزعج طمأنينته ولوث شرفه ،
فتقدم منه خطوات ولطمه على وجهه لطمه شديدة
تركت وراءها آثاراً حمراء وزرقاء ؛ وبدأ على محمد
أنه لم يشعر بوقع اللطمه وإن ترنح قليلاً من شدتها
فاستطرد ذاهلاً :

« الورقة ... »

فانفجر عمه مغيظاً محققاً قائلاً :

« أهكذا يثمر فيك الجليل يا خسيس؟ ... أهكذا
ترد الصنع يا لئيم ... وافضيحتاه ... واخزيه ...
ستجعلني أضحوكة للشامتين والحاسدين ؛ وهذا جزاء
من تأخذه رحمة بالأدنياء ... أغرب عن وجهي
يا مجرم ، ولا ترني صورتك بعد الآن ... لا أنت

(١) خالتي وقصص أخرى

(٢) وكيل البريد وقصص أخرى

مجموعتان من أقاصيص رابندرانات طاغور

ترجمته عبد اللطيف النشار

(٣) جنة فرعون وقصائد أخرى

(٤) نار موسى وقصائد أخرى

ديوانان من شعر عبد اللطيف النشار

(٥) الاسكندر

رواية تاريخية عن حياة الفاتح الكبير

ترجمته عبد اللطيف النشار

تمن هذه الكتب الخمسة عشرة قروش بما في ذلك
أجرة البريد وتطلب بالبريد من صاحبها بمنوانه :

١٨ شارع الإيعادية بمحرم بك بالإسكندرية